القرآن بين المسلمين

الحمـد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام على سـيد الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسـلم تسـليماً كثـيراً، أمـا بعد:

نزل القرآن الكريم على الرسول - صلى الله عليه وآله وسـلم - في زمن شـاع فيـه الكفـر والجهـل، وسـاد فيـه الظلم بشـتى صـوره وأنواعه، فلما جاء الرسول - صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم - بالـدين الإسلامي، وبالقرآن الكريم؛ استنارت العقول المظلمة، واهتدت به النفـوس الضـالة، وتفتحت بـه القلـوب المغلقـة، فضـبط السـلوك، وهذب الأخلاق، وأزال الشرك المنتشر في أوساط المجتمع آنذاك.

وحين انتشـرت الـدعوة، واسـتجاب لهـذا الـدين فئـام من النـاس اختـارهم اللـه - عـز وجـل - واصـطفاهم لأن يكونـوا هم حملـة هـذا الكتاب الكريم، والمبلغين لهذا المنهج الربـاني، والمـزيلين للشـرك والوثنية المنتشرة بالحجة الواضحة، و{بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَـنَةِ} [1]، فلما كانوا هم من اختارهم الله لحمل هذا الكتاب، والدعوة إليـه؛ فقد أخذوا هذا الكتاب بقوة، وتحملـوه بحقـه، حـتى صـاروا بعـد أن كانوا طغاة متجبرين، يخـافهم كـل من يـراهم، وبمجـرد أن أسـلموا وامنوا بالله - عز وجل - صار على وجوههم خطين أسودين من كثرة البكاء من خشية الله - عز وجل -، بل بلغ بهم الحال كما ذكر أبو عبد الرحمن السلمي - رحمه الله - في قوله: "إنا أخذنا القـرآن عن قـوم (وهم الصـحابة)، فأخبرونـا أنهم كـانوا إذا تعلمـوا عشـر آيـات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعملـوا مـا فيهن من العلم، قـال: فتعلمنا العلم والعمل جميعاً"[2]، فكان نتيجة أخذهم الكتاب بحقـه أن سادوا الأمم، وفتحـوا الأمصـار، ونشـروا الـدعوة في أرجـاء الأرض حتى وصل الدين إلى كل بقعة، وسـاد الإسـلام في كـل المعمـورة، فلم يتخبـط النـاس في الضـلالات والبـدع والأهـواء؛ لأن القـرآن الكريم كان دستورهم، ومنهاج حيـاتهم كمـا حكى اللـه - عـز وجـل - بقوله: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}[3]، وبهذه الآية "يمدح - تعـالى - كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد - صلى الله عليه وسـلم - وهـو القـرآن بأنـه يهـدي لأقـوم الطـرق، وأوضـح السـبل، {وَيُبَشِّـرُ الْمُـؤْمِنِينَ} بـه، {الَّذِينَ يَعْمَلُـونَ الصَّـالِحَاتِ} على مقتضـاه، {أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً.} أي: يوم القيامة"[4]

وهدايته لأقوم الطرق كانت لأنه كتاب رباني، منزل من الله - تبارك وتعالى - فهو كما قال الله - تعالى -: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُـلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}[5]، وهذا مما اختص الله - عز وجل - به هذه الأمة المباركة، حيث أنزل عليها أفضـل كتبـه المتعبـد

بتلاوته, ورتب - سبحانه - على مجرد قراءته أجوراً عظيمة فضلاً عن تدبره والعمل به, فهو حبل الله الموصل إلى رضوانه وجنته - تبارك وتعالى-، وقد تكفل - سبحانه - بحفظه وصيانته من الضياع والاندثار، والتحريف والتبديل؛ إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وتحدى الله - عز وجل - الأمة انسها وجنها على أن يأتوا بمثله أو أن يأتوا بآية واحدة في مثل فصاحة القرآن وبلاغته، وشموله لكل مناحي الحياة {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}[6]؛ فإن هذا القرآن نزل على محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - من عند الله العزيز الحكيم العالم بما يصلح العباد والبلاد على مختلف الأماكن والأزمنة: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}[7]، هذا هو حال أسلافنا الأوائل مع القرآن الكريم، فما حالنا اليوم مع هذا الكتاب العزيز؟.

إن حال الأمة جمعاء - إلا من رحم الله - قد سطره أبو عبد الرحمن السلمي - رحمه الله تعالى - في كلمات تصف الحال الذي وقع فيه كثير من أبناء المسلمين اليوم حيث قال: "وإنه سيرث هذا القرآن قوم بعدنا يشربونه كشربهم الماء، لا يجاوز تراقيهم، قال: بل لا يجاوز ههنا ووضع يده تحت حنكه."[8]

إن الأمة اليوم لا تعاني من قلة المقارئ، ولا قلة التالين للقرآن الكريم، بل على العكس، فنحن نعيش اليوم واقعاً مليئاً بالقراء والحفظة، والتالين للقرآن الكريم؛ إلا أن هذه التلاوة، وهؤلاء الحفظة لكتاب الله - عز وجل - يعانون من قضية مهمة هم غافلون عنها أو متغافلون ألا وهي قضية الارتباط بالقرآن، وجعله منهجاً، وسلوكاً في الحياة، وهذه القضية لها أثرها الكبير على حياة الفرد، ومن ثم على حياة الأمة.

فالأمة اليوم تعيش وهناً وضعفاً لم تمر بمثله في تاريخها، وكل المهتمين بواقع الأمة يبحثون عن العلاج، والحل لهذه القضية، والعلاج يكمن في القرآن؛ لأن الله - عز وجل - يقرر في كتابه الكريم أنه الهادي: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}[9]، والكل منا يرجو السلامة والنجاة من المضلات والفتن التي تتابع على الأمة فتزل فيها الأقدام، ويؤكد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هذه الحقيقة بقوله: ((وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بينا: كتاب الله، وسنة نبيه))[10]، فهو المخرج إذن من الفتن، والواقي من الضلالة، ولو تمسكت الأمة بكتاب الله - عز وجل - لما وقعت فيما وقعت فيه اليوم من الذل والهوان.

ولقد علم الصحابة - رضي الله عنهم - هذا الأمر حق علمه، حتى سطره عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - بكلمات تكتب بماء الذهب حين قال: "إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العز بغيره"[11]، وبهذا امتن الله - عز وجل - على المسلمين بقوله:

{وَاذْكُـرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيـلٌ مُسْتَضْـعَفُونَ فِي الأَرْضِ} "قـال قتـادة بن دِعَامة السَّدوسي - رحمه الله -: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذُلاً، وأشقاه عَيْشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالاً، مكعومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيّاً، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قَبِيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء اللّه بالإسلام، فمكَّن به في البلاد، ووسَّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى اللـه ما رأيتم، فاشكروا للـه نعمه، فإن ربكم مُنْعِم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله - تعالى -"12.

فمتى تمسكنا بديننا، وكتاب ربنا - عز وجل -؛ أعزنا الله، والعكس بالعكس، فعلى العبد أن يسعى لتحقيق القرآن واقعاً ملموساً في النفس، والبيت، والمجتمع، وليتأس بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وصحابته الكرام - رضي الله عنهم -.

وفي الأخير فإن المسؤولية الكبيرة تقع على كواهل أهل العلم، ومن أقدرهم الله على صنع القرار، أو المشاركة فيه، أو التأثير عليه؛ بأنْ يُولوا هذا المشروع وهو تحقيق كتاب الله واقعاً ملموساً في المجتمع، والعناية التامة حتى يرى النور, وتنعم الأمة بضبط كتاب ربها تلاوة وتجويداً وسلوكاً، ونسأل الله - عز وجل - بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى؛ أن يرد المسلمين إلى دينهم وكتاب ربهم رداً جميلاً , وأن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن الكريم, وأن يهدينا لما فيه من الآيات والذكر الحكيم، وأن يرزقنا العمل به وفهمه، وألا يجعل حظنا فيه إقامة حروفه فقط.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

---

1 (125) سورة النحل.
2 (1/165) فضائل القرآن للفريابي.
3 (9) سورة الإسراء.
4 (5/48) تفسير ابن كثير.
5 (89) سورة النحل.
6 (88) سورة الإسراء.
7 (6) سورة النمل.
8 (1/165) فضائل القرآن للفريابي.
9 (9) سورة الإسراء.
10 (2/603) سيرة ابن هشام.
11 (1/8) المستدرك (1/130)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة.
12 (4/40) تفسير ابن كثير.